قصة مرثية — السّلطعون

بقلم اميل حبيبي

ليس آتٍ ببعيـد
بـل قريبٌ ما سيأتي
(عبد الله بن عبد الاعلى)

منذ ان جاورته ، على المقعد الذي اكلته اسنان من سبقنا في المدرسة الابتدائية ، لا اعرفه الا بهذا اللقب ـ السلطعون . اما هو فكان يدعي انه حمله معه من قريته . واما اهله فقالوا انه عاد به من المدينة . والحقيقة هي ان القاب ولدنتنا ، مثل النكتة ، لا يعرف مصدرها . ولكنها تلصق . وهمي فيها أكبر من همه . فكنت الاحق هذه القضية . فلاحظت ، فيما بعد ، ان ام الولد كثيرا ما تكون البادئة باطلاقه على ولدها . فألقابنا تشف عن طبائعنا . وامهاتنا ادرى بنا .

وكنت أحسب ان لقب سرطان البحر علق به على مظهره الخارجي . فان مشيته غريبة ـ الكتف اليمين مندفعة الى امام ، والقدمان منفرجتان مثل البركار المفتوح ، اليمين تؤشر على اليمين ، والشمال على الشمال في اصرار البوصلة . واذا اضفت الى ذلك قامته الطويلة النحيلة ، وعنقه الممطوط ، لا تحتاج الى معرفة سابقة بهذا اللقب حتى تبادره به .

ولكنني كنت مخطئا . فلما اغرمت بصيد السمك ، وتعرفت على طبائع سرطان البحر ، وعرفت صديقي المرحوم حريز اليقظان كما يعرف السر كاتمه الامين ، ادركت ان الالقاب تتناول ما هو اعمق من المظهر الخارجي، وتعرينا . كان المرحوم ، في طينة قلبه وفي سذاجته ، اشبه بسرطان البحر في سذاجته التي لا نظير لها . ولو كان العرب أهل شواطىء لاستعاضوا به عن النعامة في امثالهم ـ يكون يجري مندفعا ، فما ان يرى ظلا غريبا في طريقه حتى ينقلب على ظهره وينصب فكيه استعدادا للقتال ، فيؤسر على أهون سبيل . ولو ظل يجري لنجا . رحمهما الله ، صاحبي وسرطان البحر ، ورحم كل اصحاب القلوب الطيبة ، المحاربين المنقلبين على ظهورهم ، الذين يزيد عددهم على عدد رمل البحر !

وفكرت مليا في العنوان الملائم لهذه المرثية ، التي طلبتها مني في الاربعين على وفاة المرحوم حريز اليقظان ، صديق العمر ، حتى عدت اليّ وانت تقول انك تريد مني فيها ، بالاضافة الى تعداد مناقبه ، ان أفسر لاصدقائه الكثيرين كيف كنت ابتسم بل ، كما اتهمتموني ، كنت اضحك ، من دون المشيعين جميعا ، وانا اسير معكم وراء جثمانه .

اما والله ما ضحكت يا اخي . وشر البلية لا يضحك . ولكنني ابتسمت لانني وجدت ، على حين غرة ، الجواب على السؤال الذي اقضه طول حياته . ولو كنت وجدت هذا الجواب وهو على قيد الحياة ، واخبرته به لابتسم معي . وفطنت الى طيبة سرطان البحر . فجعلته عنوانا . وستبتسم انت ايضا ، حبا وحسرة ، حين تعلم عنه ما علمت .

ما هي النهاية ؟ هذا هو السؤال الذي ألح عليه طول الوقت . انتم لا تعرفونه الا « ابـا فلان » . وكان لهذا الاسم هيبة في زمن الانتداب . ومن الاسماء ما له هيبة . وبقيتم وقتا طويلا ترجعون صدى صوته الذي انقطع . فقد اذهلته النكبة الاولى فانطوى على نفسه . ولم يبرأ كليا من هذا الذهول حتى ساعته الاخيرة . واعجب ما في امره ان صدمة حزيران قد ردت اليه بعض انفاسه ، مثلما تفعل الصدمة الكهربائية بمرضى الاعصاب .

وكنت اتردد عليه في بيته . فلم اقطع ما تعودنا عليه ، في زمن الانتداب ، من تبادل الرأي والمساره . فجلسنا ننظر حوالينا الى شعب ، بقضه وقضيضه ، وقد هام على وجهه في ليلة غبراء . حدثته عن البيوت التي دخلناها في حيفا فوجدنا القهوة مصبوبة في اكوابها وما وجد اصحابها وقتا لشربها قبل الرحيل . فحدثني كيف

رحل جيرانه ، كانما وباء خبيث انتشر في حارته . بدأ بالجار فانتقل الى جاره . خلا بيت فاخلى ما حوله . وخرجت سيارة محملة بمتاع دار ، فاكترى الاخرون دواب ، وآخرون استدبروا ارجلهم . وبادرني بالسؤال : ما هي النهاية ؟.

واذكر يوما حين عاد من زفاف احد اقربائه في قرية بيت صفافا ، في ضواحي القدس ، التي شقتها اتفاقية رودوس ، بالاسلاك الشائكة ، الى شقين ، اسرائيلي واردني . عاد وقد استبد به هذا السؤال . قال انهم شرفوه بأن اختاروه ليتأبط ذراع العريس ، « فلا تزال في هيبة هذا الاسم بقية » . وكانوا يزفون العريس في شارع القرية الوحيد . وعلى يسارهم الاسلاك الشائكة التي تحز القرية الى قسمين . وسار العريس وحوله اقرباؤه واصحابه في القسم الاسرائيلي ، بينما سار بقية اقربائه واصحابه ، يهزجون ويزفونه ، الى جانبهم من وراء الاسلاك الشائكة في القسم الاردني . وقد حافظ كل فريق على مقتضيات الامتناع الكلي عن تبادل الحديث فيما بينهما لما في ذلك من اتصال ممنوع بالعدو ، هذا القريب بعدوه القريب ، وذاك القريب بعدوه القريب ، سوى الزغاريد التي تشق كل ما خلقه الله من اسلاك شائكة ، ولا يفهمها الرقيب على القريب . فصاح : ما هي النهاية ؟

في يوم آخر ، حين استيقظنا على الخبر الداهم عن اعتقال عائلة الابراهيمي المعروفة ، بجميع رجالها ونسائها. وهم جيرانه . فأخبرني همسا بان ابنهم اللاجيء في الاردن عاد متسللا ، واختبأ في الدغل ، وارسل في طلب اخيه ، فجاءه . ثم جاءه والده . ثم جاءته امه وعلى رأسها طبق محمل بالدجاج المحمر . ثم جاءه اخوته واخواته ، وابناء عمه ، واخواله . فاعتقلوا جميعا . لقد اتم سرد الحكاية همسا ، ثم صاح : ما هي النهاية . ومط عنقه المطوط : اريد ان اعيش حتى ارى كيف تكون النهاية .

والواقع ان سؤاله الدوام هذا كان يهز خواطري . فأبسط امامه رؤيانا السياسية عن المستقبل الممكن الوقوع ، حيث تزول اسباب الكراهية والريبة بين الشعبين فلا تبقى قضية اقليمية او قومية الا وتنفرج عقدتها . ولا شك في انني كنت اردد على مسامعه حقيقة الفارق ما بين مسلكه ومسلكنا . فبينما هو يريد ان يعيش حتى يرى كيف تكون النهاية ، نحن نريد ان نعمل من اجلها .

حتى ارتطمنا بحرب حزيران ، وما بعدها . وعاد من زيارته الاولى الى مدينة نابلس وهو اشد اقتناعا بحيرته ـ ما هي النهاية ؟

قال : حتى اصحابك هناك لم تحتو رؤيتهم السياسية ما حدث . فهل حسبتم انتم له اي حساب ؟ لقد ناموا على حكم واستيقظوا على حكم آخر ، فما هي النهاية ؟

وحين عدت من زيارة رام الله للمرة الاولى بعد حزيران ، والتقيت اقربائي هناك . هتف : هل دخلتها بسيارتك الاسرائيلية ؟ قلت : نعم . فصاح : في سنة ١٩٤٨ اضطررت الى ترك بيتك في رام الله والمجيء الينا ، فهل تصورت ، حتى في اضغاث احلامك ، هذه العودة الى بيتك في رام الله ؟ ما هي النهاية ، ما هي النهاية ؟

ولم اشأ ان اخبره بأنني وجدت البيت الذي سكنته في رام الله مهجورا منذ ان اخليته . وبانني لففت حوله ، وطلعت على عتبته . ونظرت من احدى النوافذ فرأيت عنكبوتا قد نسج خيوطا احتوت السقف كله . فتأملت ان يكون من بقايانا . فسألته : هل تذكرني ؟ فظل ينسج خيوطه .

وقلت لصاحبي مواسيا : اتدري ؟ نحن لا نتساءل عن النهاية منذ سنة ١٩٤٨ فقط ، بل منذ بدأنا نشترك في المظاهرات والاضرابات .

فقال : ما ابعد ما قطعنا ، ولا نزال نسير ، فتتلوى الطريق امامنا ، وفي كل عطفة مفاجئة ، وفي كل مفاجئة عثار . فما هي النهاية ؟

ومنذ ذلك اليوم ، في اواخر سنة ١٩٤٨ ، حين اقتادوه مع الالوف من رجال بلده الى الساحة العامة مستنطقينهم عن السلاح المخبوء ، ولتعريب الرجال غير المرغوب فيهم ، ومر مع غيره امام رجال غطوا رؤوسهم باكياس خيش مثقوبة للرؤية ، فأشار رجال الخيش عليه وعلى المكان الذي خبأ فيه البندقية ، وكان يحسب ان احدا سواه لا يعرف مكانها ، وسجنوه ، وهو يرفض الاشتراك في أي عمل جماهيري . وكان يقول لي ، حين كنت اجيئه مستحثا : لا يصلح العمل المجدي الا مع ناس تأتمنهم . الحذر ضرورة ، والثقة طيش . حزبك على الرأس والعين ، ولكنه مفتوح ، فلا استطيع ان ابذر حياتي فيه هباء .

الان جاء الدور على تعداد مناقب الفقيد . لقد كانت منقبته الوحيدة انه رفض ان يكون علينا حين تهاوى الرجال مثل ذباب على جيفة ، ينهشون لحومنا الطرية وهم يعتذرون : نريد ان نعيش ! لقد احجم عن العمل معنا ، ولكنه رفض التفريط بما كان لاسمه من هيبة ، فعاش محترسا ـ هذه هي منقبة المرحوم حريز اليقظان التي دفعت الى السير وراء جثمانه مئات عارفي فضله ، حاملينه الى مثواه الاخير .

وبمرور الايام اثقلت اليقظة على صاحبنا المرحوم حريز اليقظان . وحين تبين لنا ان واحدا من جماعتنا انما هو عميل مأجور زرع في صفوفنا ، وجئته لاخفف من وقع الانكشاف عليه ، بادرني مهتاجا : أرأيت ؟ قلت : ففي اي مكان رأيت غير هذا ، وهل استطاع المزروعون ، في يوم من الايام ، ان يحرقوا ما زرعه الشعب بأكفه ؟

ثم جاء ذلك اليوم الحاسم ، حين زرته فلم يلقني بقهقهته المسموعة ، التي لم يبق مسموعا عنه سواها . كان

متجهما ويحدثني بتحفظ . وكان ساخطا ومتأففا . وما ان بادرته بحديثنا العادي ، عن السياسة وما اليها ، حتى اطلق جهاز الراديو على عقيرته ، وقارب اذني هامسا انهم استدعوه امس ، وحققوا معه في حديث جرى بيني وبينه في بيته ، وان ما نقلوه عنه صحيح ، وانه متأكد من انهم زرعوا ، في هذه الغرفة من بيته ، آلة التقاط للصوت ، فلا يصلح الكلام هنا . قلت : ولا في أي مكان آخر ؟ قال: ولا في أي مكان آخر . قلت : بل يصلح الكلام الصحيح في كل مكان . قال : الحذر الحذر !

ومنذ ذلك اليوم لم يعد حديثه معي سوى همهمة. فاذا سألته رايه في امر اطلق من فمه حشرجة ، تارة مبحوحة وتارة خشنة ، على حسب المدلول الذي يريده لهذه الحشرجة . فاذا الححت عليه رفع حاجبيه تارة ، واغمض عينيه او فتحهما تارة اخرى . وكان عليّ ان افهم من هذه الحركات والهمهمات والحشرجات رأيه في الامر .

وفي احدى هذه الجلسات نسيت انني حيوان ناطق فجاريته في لغة السر العميق التي اختارها امعانا في الاحتراس . فصرت اهمهم ردا على همهمته ، وارفع حاجبي فيخفض حاجبيه ، فأخرج الحشرجة من فمي فيرد عليّ بأحسن منها . وبقينا على هذه الحال حتى اديرت القهوة ، فانصرفت .

وما ناديته ، بيني وبينه ، مرة الا بلقب الطفولة ـ السلطعون . وكان يناديني ، هو ايضا ، بلقبي . ولن اطلعك عليه لان هذا الامر هو مهمة من سيكتب في رثائي ، اذا ما وجد . غير انني ، في زياراتي الاخيرة له، اصبحت اناديه برهين المحبسين : بيته وصدره . فكان يجيبني بكحة مصدورة تستغرق اكثر الوقت الذي اقضيه معه .

فالمرحوم حريز اليقظان ، في ايامه الاخيرة ، استعان بالخمرة على احتمال الكتمان ، حتى ادمن عليها. وكان لا يخرج من بيته الا لقضاء هذه الحاجة او ليحملها معه الى بيته محترسا .

حتى كان ذلك اليوم المشؤوم حين فاجأنا بحضور الاجتماع الانتخابي الاخير الذي عقدناه . وتصدر القاعة وقد نصب عنقه استعدادا للقتال . وكان واضحا ان صاحبنا قد اثمل .

وبينما كان خطيبنا في عنفوان خطابه ، والتصفيق له يتابع التصفيق ، وأمل الحياة يدفع الى العمل ، اذا بصوت يعلو على صوت الاكف ، وعلى صوت الهتافات ، يقطع كل نأمه ويذهل الحضور . كان صاحبنا المرحوم حريز اليقظان يهتف ، بأعلى ما في حنجرته التي حبسها دهرا ، بهتافات قومية متطرفة .
تجمعنا حوله ، واخذناه بأقصى ما استطعنا من هدوء ، خارج القاعة . وذهبت معه الى بيته حيث وضعته في الفراش وقد غاب وعيه ، وكان يردد دونما رابط سؤاله المقيم : ما هي النهاية ، ما هي النهاية ؟ ولم اتركه حتى سمعت شخيره .

ولكنهم لم يتركوه . وتعرف كيف اعتقل في الليلة نفسها . وخرج بعد اسبوع وقد ضرب واهين . فوقع في الفراش . ولم يخرج من بيته بعدها الا محمولا على الخشبة .

وحين سرت مع اصحابه الكثيرين وراء جثمانه ، وتطلعت الى فوق حيث كان محمولا على الاكف ، سقطت على راسي تفاحة نيوتن فوجدت الجواب على السؤال الذي اقضه طول عمره : ما هي النهاية ؟ فتبسمت .

هذه هي النهاية ، يا صاحبي . نهاية الذي لا يتلفت حوله بل يتلفت الى داخله ، فلا يرى حوله سوى الظلال الغريبة ، فينقلب على ظهره وينصب فكيه للقتال. ايهما تقاتل : نفسك ام ظلالك ؟

وبعد ان وارينا جثمانه في مثواه الاخير ، وترحمنا على نفسه الطاهرة ، عدنا الى اعمالنا نجمع الرجال مع الرجال لنوسع في الظلال التي يتفيأ بها حاثو الخطو نحو ما سياتي .

اميل حبيبي

عن مجلة « الجديد » ـ حيفا

على محمود طه

قصائد

اختارها وقدّم لها

صلاح عبد الصبور

٢٥٠ ق ل

صدر حديثا